الامام الرضا
حياته وولاية عهده

□ الدكتور حازم سليمان الحلي

وُلِدَ ثامن أئمّة أهل البيت علي الرضا بن موسى بن جعفر (ع) في المدينة المنورة يوم الجمعة ١١ ذي القعدة عام ١٥٣هـ[١] وفي تاريخ مولده أقوال أخرى[٢]، وأمه أم وَلَد اسمها الخيزران أو أروى أو نجمة ولقبُها شقراء أو أمُّ البنين أو تُكتم على اختلاف[٣]؛ وكنيتهُ أبو الحسن[٤] ويقال له أبو الحسن الثاني وقيل كان يكنّى بأبي بكر[٥] ويُلقّبُ بالرضا[٦] وهو أشهر ألقابه كما يُلقب بالرّضي والصابر والوفي[٧].

عُرف الامام الرضا (ع) بعالم آل محمد (ص). قال أبو الصّلت: حدثني محمّد بن إسحاق بن موسى بن جعفر عن أبيه موسى بن جعفر (ع) انّه كان يقول لبنيه: هذا أخوكم علي بن موسى عالم آل محمّد فَسَلُوهُ عن أديانكم، واحفظوا ما يقولُ لكم[٨]. وكان يجلس في مسجد رسول اللّه في المدينة فيُثري الناس بعلمهِ وإذا عجز العلماءُ عن جواب مسألة رَجعوا إليه فوجدوا لديهِ الجوابَ السديد[٩].

(١) وفيات الأعيان: ٣٦٩/٣ وأعيان الشيعة: ١٢/٢.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣٥١/٦ و أعيان الشيعة: ١٣/٢.

(٣) أعيان الشيعة: ١٣/٢.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) مقاتل الطالبيين: ٤٥٣ وأعيان الشيعة: ١٣/٢.

(٦) تاريخ الرسل والملوك: ١٠١٢/٣ ومروج الذهب: ٣٠/٤و٣٢ وتاريخ اليقعوبي: ٤٠٦/٢ والكامل: ٣٢٦/٦ ووفيات الأعيان: ٣٩/١ و٢٦٩/٢ وأعيان الشيعة: ١٣/٢.

(٧) أعيان الشيعة: ١٣/٢.

(٨) المصدر نفسه: ١٤/٢.

(٩) المصدر نفسه: ١٤/٢.

يقول إبراهيم بن العباس الصُّولي: ما رأيتُ الرّضا (ع) سُئلَ عن شيء إلا عَلِمَهُ، وكان المأمون يمتحنهُ بالسؤال عن كل شيء فيجيبُ عنه وكان جوابُهُ كلُّهُ وتمثيلهُ انتزاعاً من القرآن الكريم[١].

لقد عاش الامام الرضا (ع) في عصر المأمون، وكان المأمونُ من علماء خلفاء بني العباس، ومن المهتمين بالحركة العلمية وتنشيطها، وعاش الامام (ع) في خِضمِّ الصراع بين الامين والمأمون على الخلافة وانتهى بانتصار المأمون على الأمين، واضطرب أمر الخلافة العباسية، والسَّببُ في ذلك أنَّ هارون الرشيد بايع لابنه الامين ولياً للعهد من بعده ولأخيه المأمون من بعدهِ ولاخيهما القاسم المؤتمن من بعد المأمون وجعل أمر ابقائه وعزله بيد المأمون وكتب بذلك صحيفة وأودعها في جوف الكعبة وقسم البلاد بين الأمين والمأمون[٢]، وتسلَّم الخلافة بعد الرشيد ولدُهُ محمّد الأمين ابن سيدة البلاط زُبيدة بنت جعفر بن ابي جعفر المنصور وكان شاباً مدلَّلاً مُولعاً بشرب الخمر واللهوِ والمجون قليل التجارب، وكان مقرُ إقامتهِ في العاصمة بغداد، وقد حملهُ غرورهُ على خلعِ أخيه عبد اللّه المأمون من ولاية العهدِ الذي كان في مرو[٣] ومبايعة ولده الصغير موسى[٤] وهو أمر آثار حفيظة المأمون عليه فوجَّه إليه المأمون جيشاً احتل بغداد واغرقها في بحر من الدماء والخليفة لاتعنيه الضحايا من الفريقين والحربُ المشتعلة من حوله فقد جلس الأمين ومعه سليمان بن أبي جعفر المنصور وابراهيم بن المهدي في قصره المعروف بالخلد في بغداد على ضفاف نهر دجلة في ليلة مقمرة وشرب كل منهم خمسة أرطال من الخمر وطلبوا المزيد واستدعى الأمين احدى جواريه فراحت تغنيه[٥] واشتدَّ القتال في شوارع بغداد بعد ايام فجاءه عمه ابراهيم بن المهدي فوجدهُ يلهو في بركة ماء في قصر[٦]. فكيف تقوم دولة هذا شأن حاكمها في وقت الحرب، وكيف يكون إذاً حالُهُ في أيام السلم؟!

وكان لابدَّ أن تنتهي المعركة بمصرع الأمين الذي لا يعنيه شعبه ولا أمر عاصمته.

(١) أعيان الشيعة: ١٣/٢ -١٤.

(٢) مروج الذهب: ٣٦٦/٣-٣٦٧ وأعيان الشيعة: ١٦/٢.

(٣) مروج الذهب: ٤٠١/٣.

(٤) مروج الذهب: ٤٠٥/٣ وأعيان الشيعة: ١٦/٢.

(٥) مروج الذهب: ٤٠٤/٣-٤٠٥ والكامل: ١٦٢/٥.

(٦) مروج الذهب: ٤٠٥/٣-٤٠٦.

جاء المأمون الى الحكم على أشلاء الضحايا فكان لابدَّ من التفكير بارضاء الناس وكسب ودِّهم، ولمَّا كان في مرو سنة ٢٠٠هـ قال: إنني أُريد أن أتوبَ إلى اللّه من ذنوبي وأستعين به على هذه الأُمور وأستجير به فاغتسلتُ ولبستُ ثوبين أبيضين وصليت أربع ركعات وعاهدتُ اللّه أن أضع هذا الأمر في موضعه الذي وضعهُ اللّه عزّ وجلّ فيه فلم أجد أحداً أحقَّ بهذا الأمر من أبي الحسن الرضا (ع)[١]. ثمَّ استدعى وزيريه الفضل والحسن ابني سهل وأخبرهما أنَّهُ يريد عقد ولاية العهد للامام علي بن موسى الرضا لانّه عاهدَ اللّه أن يُخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرَ بالمخلوع: قال: وأنا لا أعلم أفضلَ من هذا الرجل[٢] على وجه الارض ثم أرسلها وقيل أرسل غيرهما[٣] إلى علي بن موسى الرضا (ع) عام ٢٠٠هـ وكان في مسقط رأسه المدينة المنورة بجوار قبر جدِّه رسول اللّه (ص) فعرضا ذلك عليه فأبى ولم يزالا به وهو يأبى ويمتنع منه حتى هدّداه بالقتل.

قال له أحدهما: واللّه أمرني بضربِ عُنقِك، إذا خالفتَ ما يريد[٤]. كان الامام الرضا على علم بمجريات الاحداث وما يدور في الساحة لذلك رفض الاستجابة لطلبِ المأمون.

ثُمَّ أُحضِرَ الامام إلى المأمون فأحسنَ إليه وأكرمَ مثواهُ وقالَ له: إنَّ عمر جعل الشورى في ستةٍ أحدهم جدُّك وقال من خالفَ فاضربوا عنقهُ ولابدَّ من قبولكَ[٥] ثم أخبرهُ انَّهُ يريد أن يخلعَ نفسهُ ويقلدَهُ الخلافةِ فأبى الرضا(ع) ذلك وجرت مفاوضات معه في مرو دامت أكثر من شهرين.

قال المأمون: فاذا أبيت ذلك فلابدَّ من قبولك ولاية العهد من بعدي، ثم خلا به وليس معهما إلا الفضل بن سهل، وقال له: لابدَّ من قبولك ولاية العهد من بعدي ثم تهدّده بالقتل، فقبل ذلك بشروط[٦].

جمع المأمون خواصّهُ وأخبرهم انّهُ نظر في وُلدِ العباس وولدِ علي (رض) فلم يجد في وقته أفضل ولا أحقَّ بالأمر من علي بن موسى الرضا فبايع له بولاية العهد وذلك لليلتين

(١) أعيان الشيعة: ١٦/٢.
(٢) مقاتل الطالبيين: ٤٥٤ وأعيان الشيعة: ١٦/٢.
(٣) مروج الذهب: ٣٠/٤ واعيان الشيعة: ١٧/٢.
(٤) أعيان الشيعة: ١٩/٢.
(٥) مقاتل الطالبيين: ٤٥٥.
(٦) أعيان الشيعة: ١٨/٢.

خلتا من شهر رمضان سنة ٢٠٠هـ[١] ثم ضرب اسمه على الدنانير والدراهم وزوجه من ابنته أمِّ حبيب وزوج ولده محمد الجواد بن علي بن موسى ابنته الاخرى أمِّ الفضل[٢] وذلك سنة ٢٠٢هـ، وأمر بازالة السواد وهو شعار العباسيين ولبس الخضرة[٣]، ولما بلغ ذلك العباسيين في بغداد عدُّوا ذلك خروجَ الامر عنهم واجتمعوا سنة ٢٠١هـ وخلعوا المأمون وبايعوا بالخلافة عمه ابراهيم بن المهدي المعروف بابن شَكله حيث بايعه العباسيون لخمس بقين من ذي الحجة وبايعه أهل بغداد أول المحرم سنة ٢٠٢هـ[٤] على ما فيه من تهتك وتجاهر بشرب الخمر والغناء، وفيه يقول ابو فراس الحمداني:

منكم عُليةُ أم منهم وكان لكم ... شيخُ المغنين إبراهيم أم لهم؟[٥]

وقالوا إنّما كانت بيعة الرضا من تدبير الفضل بن سهل[٦].

ولما بويع الامام الرضا (ع) بولاية العهد وفد عليه الشعراء مهنئين فقال أبو نواس[٧]:

قِيلَ لي أنتَ أحسن الناسِ طُرّاً ... في فنون من الكلامِ النبيهِ
لك من جيد القريضِ مديحٌ ... يُثمرُ الدُّرَّ في يديَ مجتنيهِ
فعلامَ تركتَ مدحَ ابن موسى ... والخصالُ التي تجمعنَ فيهِ
قلتُ لا أستطيع مدح إمامٍ ... كانَ جبريلُ خادماً لأبيه

وقال فيه أيضاً[٨]:

مطهرون نقياتٌ ثيابهمُ ... تجري الصلاةُ عليهم أينما ذُكروا
مَن لم يكن علوياً حين تنسبُهُ ... فحالهُ في قديم الدَّهر مُفتخَرُ
اللّهُ لما برى خلقاً وأتقنهُ ... صفاكم واصطفاكم أيُّها الدُّرَرُ
فأنتم الملأ الأعلى وعندكمُ ... علم الكتابِ وما جاءت به السورُ

(١) تاريخ الرسل والملوك: ١٠١٢/٣ ومروج الذهب: ٣٠/٤-٣١ ومقاتل الطالبيين: ٤٥٥ والكامل: ٣٢٦/٦ ووفيات الاعيان: ٢٧٠/٣ وأعيان الشيعة: ١٩/٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ١٠١٢/٣ ومقاتل الطالبيين: ٤٥٦ ووفيات الأعيان: ٢٦٩/٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ١٢/٣، ١ ومروج الذهب: ٣١/٤ ومقاتل الطالبيين: ٤٥٥ والكامل: ٣٢٦/٦ ووفيات الأعيان: ٢٦٩/٣.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: ١٠١٣/٣ ومروج الذهب: ٣١/٤ والكامل: ٣٢٦/٦ ووفيات الاعيان: ٣٩/١.

(٥) أعيان الشيعة: ٢٤/٢.

(٦) الكامل: ٣٢١/٦ وأعيان الشيعة: ١٦/٢.

(٧) وفيات الأعيان: ٣٢٦/٦ وأعيان الشيعة: ٣٠/٢.

(٨) وفيات الأعيان: ٢٧١/٣ وأعيان الشيعة: ٣٠/٢.

ودخل عليه دِعبلُ بن علي الخزاعي وأنشده قصيدته[1].

مـــدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزلُ وحي مُـقـفـرُ العـرصـاتِ

فبكى وأمر له بعشرة آلاف درهم ثم إنَّ دعبلاً استوهبَ منه ثوباً لبسه ليجعلهُ في أكفانه فخلعَ عليه جبةً كانت عليه فسـألوه ان يبيعها بثـلاثين ألفاً فرفضَ فخـرجوا عليه في طريقه وقد خرج من قم وأخذوها منه غصباً وقالو له: إن شئت أن تأخذ المال وإلا فأنت أعـلم.

فـقـال لهم: إني والله لا أُعطيكم إياها طوعاً ولا تنفعكم غصباً وأشكوكم إلى الامام الرضا (ع)، فصالحوهُ على أن يُعطوهُ ثلاثين ألفاً ثمّ أخذوها منه[2].

ولمّا حلَّ العيدُ طلب المأمونُ من الامام الرضا (ع) ان يخرجَ ليصلي بالناس لتطمئنَّ إليه قلوبُ الناس فخرج كما كان يخرج رسول الله فلما رآه افتتنوا به فلما بلغ المأمون ذلك طلب منه الرجوعَ وأمر غيرهُ يصلي بالناس[3].

لقد أراد المأمونُ امتصاص غضب الامة التي رأت كيف كانت الدعوة للثورة على الامويين للرِّضا من آل بيت محمد حتى إذا نجحت الثورة وانهار الحكم الاموي استأثر بها العباسيون واستولوا على الحكم وبقي التذمر سائداً بين الناس لانفرادِ العباسيين بالحكم ثم مطاردتهم العلويين والتنكيل بهم وسلوك سياسة البطش بكلِّ من تسول له نفسه معارضة حكمهم بانضمامهِ الى الحركة التصحيحية التي قادها الثائرون من آل البيت ضد العباسيين. فأراد المأمونُ امتصاصَ هذا الشعور الثوري لدى الناس وجعل محبي أهل البيت رصيداً له باسناد ولاية العهد للامام علي بن موسى الرضا (ع).

وقد يقال لماذا قَبِلَ الامام الرضا بولاية العهد مع كل التهديدات؟

لقد قَبِلَ الامام الرضا هذا الموقع مع ان موقعه في العمق أكبر وأهم وهو لا يحتاج إلى من يولّيه ولاية العهد، لكنَّ الامام أرادَ الاستفادة من وجوده في هذا الموقع لحراسة مفاهيم الاسلام في العقيدة والشريعة وإيصال المفاهيم الاسلامية إلى أكبر عدد من الناس من غير تقديم تنازلات لا للمأمون ولا لغيره وهو لا يؤمن أساساً بنظام ولاية العهد فهو نظامٌ ابتدعهُ

(١) الأغاني: ١٤٨/٢٠ وأعيان الشيعة: ١٩/٢.

(٢) الأغاني: ١٤٩/٢٠ وأعيان الشيعة: ١٩/٢.

(٣) أعيان الشيعة: ٢١/٢.

معاوية حين جعل ولاية العهد لابنه يزيد بأساليبه المعروفة[١].

وما كان الامام الرضا (ع) يرى المأمون جاداً في المسألة فقد أدركَ أغراضهُ البعيدة من وراء ذلك وكان الامام يرى الامر لا يتمُّ له لذلك لم يكن متحمساً للحكم في الموقع الاول أو كونه ولياً للعهد وهذه مسألة مثيرة لم تتوافر لأيٍّ إمام آخر من أئمّة أهل البيت بعد خلافة الامام الحسن (ع) وقد ملأ الامام الرضا (ع) قبل توليه ولاية العهد واثناء توليه الساحةَ الاسلامية علماً واسعاً عميقاً وواجه كلَّ القضايا التي طُرحت من قِبَلِ التيارات الفكريّة الالحادية، أو الصادرة من الكتابيين أو من أصحاب ديانات آخرى.

لقد واجه الامام الفلاسفة والصوفية وأهل الملل والاتجاهات الفكرية وكان يخاطب كُلّ واحدٍ منهم بالمستوى العلمي الذي يناسبه بما فيهم المأمون وكان الامام موسوعياً لم يتعقد من سؤال ولم يتوقف أمام مشكلة بل كان كنزاً من العلوم يفيض على الناس فيُثري الساحة العلميّة وكان ينتزعُ إجابته من القرآن الكريم، فقد سُئل عن رجل قال كل مملوك قديم في ملكي فهو حرّ فقال (ع): يعتق من مضى له في ملكه ستة اشهر لقوله تعالى: ﴿والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾[٢] وبين العُرجون[٣] القديم والعُرجون الحديث ستة اشهر[٤]! فشدَّ الانظار إليه حتى رآه الناسُ الشخصيّة الاولى في الساحة العلمية والسياسية والاجتماعية، كما هو الواقع.

وجد المأمون نفسه في مأزقٍ فالامة عامة والعلماءُ خاصة لا ترى احداً على وجه الأرض يضاهي الامام الرضا علماً وفضلاً وشرفاً ومكانة وكان المأمونُ نفسه قد صرّح بذلك عندما عزم على أخذ البيعة له بولاية العهد[٥] وقد أثار توليه ولاية العهد حفيظة العباسيين حتى خلعوا المأمون وبايعوا عمّه ابراهيم بن المهدي بالخلافة سنة ٢٠١هـ[٦] وعدّوا بيعة الرضا (ع) من تدبير الفضل بن سهل [٧] كما تقدّم.

فراجعَ المأمون حساباته وراح يسعى لارضاء العباسيين فاغتال غالبُ الرومي صاحب

(١) مروج الذهب: ٣/٣٦-٣٧ وتاريخ اليعقوبي: ٢/١٢٨.

(٢) يس: ٣٦/٣٩.

(٣) العُرجُون: أصل العذق الذي يعوجُّ وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً - الصحاح - حرجن.

(٤) أعيان الشيعة: ٢/١٤.

(٥) مقاتل الطالبيين: ٣٥٤ وأعيان الشيعة: ٢/١٦.

(٦) تاريخ الرسل والملوك: ٣/١٠١٣ والكامل: ٦/٣٢٧ ووفيات الأعيان: ١/٣٩.

(٧) الكامل: ٦/٣٢٦ وأعيان الشيعة: ٢/١٦.

ركاب المأمون ومعه ثلاثة رجال الفضل بن سهل البالغ من العمر ستين سنة عندما كان في الحمّام في سرخس لليلتين خلتا من شعبان عام ٢٠٢هـ حيثُ قطّعوه بسيوفهم ثم طلب المأمون القتلة ولمّا أُحضروا بين يديه قالوا له: أنت امرتنا بقتله فقتلهم[١] لانّه هو القاتلُ الحقيقي وأرادَ بقتلهم إخفاء معالم الجريمة، وهذا الاسلوب معروف لدى العباسيين فقد كلّف هارون الرشيد خادمهُ ياسراً بقتل جعفر بن يحيى البرمكي ثم أمر آخرين بقتل ياسر مدعياً انّه لا يستطيعُ رؤية قاتل جعفر[٢] والقصد من هذه السياسة اخفاءُ معالمِ الجريمة بقتل شهود الاثبات.

وما زالت دوائر المخابرات والجاسوسية الدولية والطواغيتُ تستعملُ مثل هذه الاساليب فيكلّفون شخصاً بالقيام بعملٍ إجرامي من قتلٍ أو تفجير أو ما يشبه ذلك ثم تكليف آخر بقتله وقد يُكلّف ثالثٌ بقتل الثاني كلُّ ذلك لينقطعَ الأثر تماماً وتضيع الجريمة بقتل شهودها. ومع أنَّ هذه الاحداث تتكر على مرِّ الزمان إلا انَّ الضالعين في ركاب الطواغيت والمتلبسين في الجريمة بين دوائر المخابرات وعصابات الجاسوسية الدولية لا يدركون انهم انما يحفرون قبورهم بقتلهم غيرهم والشواهد أمامنا كثيرة فاين المعتبر!

وبعد ان تخلص المأمون من الفضل بن سهل وتخلص ممن أمرهم بقتله يكون قد نبَّه العباسيين الناقمين عليه بانَّه أراحهم من الفضل بن سهل الذي حمَّلوه مسؤولية تدبير جعل ولاية العهد للامام الرضا (ع) ثم بدأ يخطّطُ للتخلُّص من الامام نفسه.

ولما اعتلَّ الامامُ الرضا (ع) عندما كان في طوس سارعَ المأمونُ لعيادته بعد ان أمر عبد اللّه بن بشير بإطالة أظفاره وغمسها في مادة سامة.

حضر المأمون عند الامام الرضا (ع) يصحبُهُ عبد اللّه بن بشير هذا الذي أعدّه لتنفيذ الجريمة وسأل المأمون الامام (ع) عن حاله وفيما إذا جاءهُ أحد من المترفقين ولمّا عَلِمَ بعدم مجيئهم أظهر غضبهُ وصاح على غلمانهِ وقال للامام (ع): خُذ ماء الرُّمان ثم دعا برمّان فاعطاه الى عبد اللّه بن بشير ليعصرهُ بيده التي تحمل السُّمَّ في اظفارها وسقاهُ المأمون بيده فلمَّا شربه الامام (ع) دبَّ السُّمُّ في بدنه وقضى (ع) مسموماً في آخر صفر سنة

(١) تاريخ الرسل والملوك: ١٠٣٧/٣ وأعيان الشيعة: ٢٥/٢.

(٢) مروج الذهب: ٣٩١/٣-٣٩٢.

٢٠٣هـ وقيل إنَّ السُّمَّ وضع في العنب[١] وتمارض المأمون وادَّعى انّه أكل هو والامام من طعامٍ واحد فأصابهُ ما أصابَ الامام (ع)[٢] ولم تستمر علةُ الامام اكثر من ثلاثة أيام[٣]. والمؤرخون الذين عاشوا تحت ظل الحكم العباسي كالطبري والمسعودي زعموا ان الامام مات بعنبٍ أكله وأكثر منه[٤]!

وما سمعنا بانسان أكثر من أكل العنب فمات والمعروف عن الامام الرضا (ع) انّه كان خفيف الاكل قليل الطعام[٥] كثير الصيام.

يقولُ إبراهيم بن العبّاس الصُّولي: كان الامام الرضا (ع) كثير الصيام ولا يفوتهُ صيامُ ثلاثة أيام من الشهر[٦] وهو من العاملين بقوله تعالى: ﴿وكُلُو واشربوا ولا تُسرفوا﴾[٧] وبقول جدِّهِ الامام علي (ع): «المعدةُ بيتُ الدّاء والحميةُ رأسُ الدواء»[٨] والناس تحفظُ قول أهل البيت (ع): «نحن قوم لا نأكلُ حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع»[٩].

والامام الرضا (ع) هو الذي يقول: «ليس الحميةُ من الشيء تركهُ ولكن الاقلال منه»[١٠] وهو من ألَّف في الطبِّ عندما ما طلب منه المأمونُ أن يؤلِّف كتاباً في الطب فاستجاب له وسُميَّ بالرسالة المذهَّبة لأنَّ المأمون أمر ان يكتب بما الذهب[١١]. فمن يصدِّقُ ان الامامة الرضا (ع) مات بسبب كثرة الاكل من العنب؟

ويبدو انَّ هذه المقولة أعجبت مَن جاء بعد من وضعوها فردَّدها ابن الجزري[١٢] وابن خلكان[١٣] وتلك فرية على الامام وكلهم تداركوا فقالوا: وقيل انّه مات مسموماً[١٤] وبعض

(١) تاريخ اليعقوبي: ٤٠٨ ومقاتل الطالبيين: ٤٥٧ وأعيان الشيعة: ٢/٣٠-٣١.

(٢) أعيان الشيعة: ٢/٣٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٤٠٨.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: ٣/١٠٣٠ ومروج الذهب: ٤/٣٢.

(٥) أعيان الشيعة: ٢/١٤.

(٦) من لا يحضره الخطيب: ٤/٤٤٢.

(٧) الاعراف: ٧/٣.

(٨) من لا يحضره الخطيب: ٤/٤٤٢.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) أعيان الشيعة: ٢/٢٨.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) الكامل: ٦/٣٥١.

(١٣) وفيات الأعيان: ٣/٢٧٠.

(١٤) تاريخ الرسل والملوك: ٣/١٠٣٠ ومروج الذهب: ٤/٣٢ وتاريخ اليعقوبي: ٤٠٨ والكامل: ٦/٣٥١ ووفيات الأعيان: ٣/٢٧٠.

المؤرخين يقول: وقيل انّ المأمون سمّه في عنب[١].

ولمّا مات الامام الرضا (ع) تركهُ المأمون يوماً وليلةً ثم أحضر محمد بن جعفر الصادق (ع) وجماعةً من آل أبي طالب وأراهم إياه صحيح الجسد لا أثر فيه ليبعدَ عن نفسه الشبهة، ولو لم يكن متهماً في قتله لماذا يفعل ذلك؟

وهو اسلوب استعمله أبوه هارونُ الرشيد عندما قتل الامام موسى بن جعفر والد الامام الرضا (ع) بالسُّمِّ الذي دسَّهُ لهُ السِّنديُّ بن شاهك صاحبُ سجنهِ ثمَّ أحضر بعد موت الامام وجوه أهل بغدادَ وفيهم الهيثم بن عدي وغيره فنظروا إليه لا أثرَ به وشَهِدوا على ذلك[٢].

وزاد المأمونُ على فعلِ أبيه انَّهُ بكى لموت الامام الرضا (ع) وقال: عزَّ عليَّ يا أخي أن اراكَ في هذا الحالِ وأظهر جزعاً وحُزناً، وخرج مع جنازته يحملها وشقَّ قبرَ أبيه هارون الرشيدِ ودَفنه معه تبرُّكاً[٣].

لماذا لا يفعلُ كل ذلك إذا كانت مصلحته تقتضي ذلك؟

لقد أدَّى دوره أحسن اداء!

وهو أسلوب يتكرر مع الزمن!

وهكذا صفّى المأمونُ حساباته مع الفضل بن سهلٍ ومع الامام الرضا (ع) وقال للعباسيين لقد خلَّصتكم منهما وانتهى أمر ولاية العهدِ ولم يَعُدْ على الخلافة العباسيّة خطرُ تحولها إلى العلويين.

وكتبَ إلى العباسيين وأهل بغدادُ يُعلمُهم بموت الامام (ع) وانَّهم إنّما نقمُوا منه بيعتهُ ويسألهم الدخول في طاعته[٤].

ثم دخل المأمون بغداد يوم السبت لأربعَ عشرة ليلةً بقين من صفر سنة ٢٠٤هـ فانهى خلافة عمِّه إبراهيم وقد عفا عنه[٥]، وقيل كان دخولهُ في ربيع الاول[٦] وكان لباسُهُ ولباسُ قُوَّادِهِ وجندهِ الخضرة وهو آخر ما بقي مما أحدثهُ في الخلافة العباسيّة فأقام جمعة ثم

(١) الكامل: ٦/٣٥١ ووفيات الأعيان: ٣/٢٧٠.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٤١٧.

(٣) مقالت الطالبيين: ٤٥٧-٤٥٨ وزهر الآداب: ١/١٣٣ ووفيات الأعيان: ٣/٢٧٠ وأعيان الشيعة: ٢/٣١.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: ٣/١٠٣٠ والكامل: ٦/٣٥١.

(٥) وفيات الأعيان: ١/٤٠.

(٦) تاريخ اليعقوبي: ٢/٤٠٩.

نزعها وأعاد السواد[1].

وهكذا يكون المأمون قد تراجع عن كل ما شرع به. يفعلُ الشيء لاقتضاء مصلحتهِ ويتراجعُ عنه لاقتضاء مصلحته ايضاً.

فقد رأينا كيف بايع الامام الرضا بولاية العهد وخلع السواد وهو شعار العباسيين وارتدى الخضرة شعار العلويين حينما اقتضت مصلحتهُ ثم قتل الامام الرضا (ع) وقتل الفضل بن سهل الذي نسب إليه تدبير البيعة وخلع الخضرة وعاد إلى لبس السوادِ عندما اقتضت مصلحته أيضاً، ﴿وقُضي الامرُ واستوت على الجودي﴾[2].

عاد المأمون إلى الناس في بغداد ليقول لهم: لقد خلّصتكم من الفضل بن سهل وأنهيتُ أمر الامام وأخمدت وهج نورهِ وانهيتُ أمر ولاية العهد وخلعت الخضرة شعار العلويين وعُدتُ الى السواد شعار العباسيين وخلعتُ ابراهيم بن المهدي وعفوت عنه ﴿وقضي الأمرُ الذي فيه تستفتيان﴾[3] فعليكم الاذعان لحكمي.

قبس من أقوال الامام علي بن موسى الرضا (ع):

لقد استثمر الامام الرضا (ع) الفرصة التي سنحت له فأفاض بعلمه على الناس حينما وجد الفرصة متاحةً له.

لما وصل الامام الرضا (ع) الى نيشابور قادماً على المأمون راح يشقُّ طريقه بصعوبة بين الناس الذين وقفوا لاستقباله وفيهم ما لا يحصى عدده من العلماء وطلبة العلم وأهل الاحاديث والرواية حتى قُدِّر عدد حملة الاقلام والمحابر منهم بعشرين ألفاً ثم استوقفوه وطلبوا منه أن يحدثهم بحديثٍ عن آبائه عن جدّهِ رسول اللّه (ص) فطلع عليهم وقال: «حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبية محمد الباقر عن أبيه علي زين العابدين عن أبيه الحسين شهيد كربلاء عن أبيه علي بن أبي طالب قال: حدثني حبيبي رسول اللّه (ص) قال حدثني جبرئيل قال: سمعت ربَّ العزّة سبحانه وتعالى يقول: كلمة لا إله إلا اللّه حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي»[4].

وقال أحمد بن حنبل عن سند هذا الحديث «لو تُليَ على مجنونٍ لأفاقَ» وهو الذي

(١) مروج الذهب: ٣٢/١ وتاريخ اليعقوبي: ٤٠٩/٢.

(٢) هود: ٤٤/١١.

(٣) يوسف: ٤١/١٢.

(٤) أعيان الشيعة: ١٨/١٢.

عُرف بحديث سلسلة الذهب[1].

ثم زاد الامام قوله: ولكن بشرطها وشروطها وأنا من شروطها[2] وبذلك يكون الامام قد ضيّع على المأمون أكبر هدف استقدم الامام من أجله الى مرو وهو اضفاء الشرعية على خلافته وخلافة العباسيين بعامة فقول الامام (ع) وأنا من شروطها يعني أنّه هو نفسه من شروط كلمة التوحيد وانّ اللّه الذي جعله من شروط كلمة التوحيد أكبرُ من المأمونِ الذي يريد تنصيب الامام ولي عهدهِ.

إنَّ اختيار الامام هذا الحديث امام هذا الجمع الغفير من الناس وفيه اكثر من عشرين ألفاً ممن يمسكون أقلاماً وقراطيس لتدوين الحديث الذي يسمعونه من الامام أرادَ ان يذكرهم بانّ التوحيد يمثل عمقَ الدين وكل ما عداه عبارة عن حركة في خطِّه، فاذا عرف الانسان اللّه وجعل حركتهُ في خطِّ اللّه وجعلهُ وجهتَهُ التي يقصدها وعبادته التي يؤديها له، ولا يُحب أحداً إلا من أجلهِ ولا يطيعُ أحداً إلا من خلال طاعته عند ذلك تستقيمُ شؤون الحياة.

علينا ان نعيش عمق التوحيد عقلاً وقلباً نوحد اللّه وننفتح على كل ما يتحرك في خطِّ اللّه.

لقد اختار الامام هذا الحديث ليوجه الناس إلى هذا العمق في الانفتاح على اللّه لكي ينطلقوا في أعمالهم من خلال اللّه.

يقول الامام علي (ع): «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت اللّه فيه وخلفه ومعه»[3].

لقد كان الامام الرضا (ع) كنزاً علمياً من كنوز اللّه. كان المأمون يسألُهُ فيفيضُ علماً جماً وفي مجلس من مجالسهِ سألهُ عن أمورٍ كثيرة وسَمِعَ إجابتَهُ عنها ثم قال: للّهِ درُّكَ يا أبا الحسن! أخبرني عن قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وذا النُّونِ إذ ذهبَ مُغاضِباً فظنَّ أن لن نقدرَ عليه﴾[4].

فقال الامام (ع): ذلك يُونس بن متى (ع) ذهب مغاضباً لقومه (فظن) بمعنى فاستيقن (أن لن نقدر عليه) اي لن نُضيق عليه رزقَهُ ومنه قوله تعالى: ﴿وأمَّا إذا ما ابتلاهُ فقدر عليه

(١) المصدر نفسه.

(٢) من لا يحضره الخطيب: ٤/٤٥٦.

(٣) الندوة: ١/١٢١.

(٤) الانبياء: ٢١/٨٧.

رزقه﴾[1]، أي ضيّق وقتّر (فنادى في الظلمات)، أي ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت (ان لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين) بتركي مثل هذه العبادة التي فرّغتني لها في بطن الحوت فاستجاب الله تعالى له وقال عزّ وجلَّ: ﴿فلولا أنّه كان من المسبِّحين للبثَ في بطنه إلى يوم يبعثون﴾[2] فأدهش المأمون بأجوبته[3] التي انتزعها من القرآن.

ومن أقواله (ع): «ليس العبادةُ كثرة الصيام والصلاة وانّما العبادةُ كثرةُ التفكير في أمر الله».

وقوله: «الصمتُ بابٌ من أبواب الحكمة»[4].

انّه يركّز على التفكير في أمرِ الله فمن أعظم العبادة التفكيرُ في خلقِ الله فالانسان يحتاج إلى خلوة بينهُ وبين نفسه يفكّر فيها في مخلوقات الله وينظر في أسرار هذا الكون العظيم فالطبيعة أمامنا كتابٌ مفتوح نقرأ فيه عظمة الله في كلِّ ما نرى من الصُّنع العجيب الغريب، لو تأملنا التنسيق العجيب الغريب في رصف أجزاء الزهرة أو النظام الهندسي في حبوب ثمرة الرّمان مثلاً أو نتأمل حركة الاجرام السماوية وفق نظام دقيق بحركة محسوبة بأوزان محدّدة وجاذبية دقيقة كل ذلك بمقادير ومقاييسَ لو اختلت قليلاً لفسد الكون، لو تأملنا ذلك لأدركنا عظمة الله.

ولا يتأتى ذلك التفكير للانسان إلا بالتأمّل ولا يحصل التأمّل إلا بالصمت فما أحوجنا إلى الصمت قليلاً للتفكير العميق في خلقِ الله. فعندما يشير الامام الى التفكير في أمر الله ويدعونا إليه والى الصمت فانّما يدعونا إلى أُسِّ العبادة.

سأل الامامُ الرضا (ع) علي بن شُعيب: مَن أحسنُ الناسِ معاشاً؟

فقال له: أنت يا سيدي أعلمُ به منّي.

فقال الامام (ع): مَن حَسُنَ مَعَاشُ غيرهِ في معاشه.

ثُمَّ سألهُ الامام (ع): وَمَن أسوأُ الناس مَعاشاً؟

فقال له: أنت يا سيدي أعلمُ.

فقال له (ع): مَن لم يعش غيرُهُ في معاشِه.

ثُمَّ قال (ع): أحسِنُوا جوار النّعم فانَّها وحشيّة ما نأت عن قوم فعادت إليهم، إنّ شرَّ

(١) الفجر: ١٦/٨٩.

(٢) الصافات: ١٤٣/٣٧.

(٣) أعيان الشيعة: ٢٣/٢.

(٤) المصدر نفسه: ١٨/٢.

الناس من منع رِفده وأكل وحدَهُ وَجَلد عبدَهُ. أحسن الظنَّ باللّه فانَّ من حَسُنَ ظنُّهُ باللّه كان اللّه عند حُسن ظنِّه وَمن رضي بالقليل من الرزقِ قَبِلَ اللّه منه اليسير من العمل. ليس لبخيل راحةٌ ولا لحسود لذة ولا لملولٍ وفاء ولا لكذوب مروءة[1].

إنَّ الذي يصدر من الامام فيض من العطاء الالهي، انّه ينبوع حكمة يفيض على الناس، فهو لا يرى أحسن الناس معاشاً من كانت حياتُهُ رخيّة آمنة مليئة بكل ما يشتهيه وما يُحبُّهُ من ماديات ومعنويات بل هو الذي يعيش غيره في معاشه، الذي عاش وعاش الآخرون معه، مثلُهُ كمثلِ النبع الذي يفيض فيحي الارض من حوله.

وأسوأ الناس معاشاً عند الامام (ع) من لم يعش غيره في معاشه ذلك البخيلُ الحريصُ على ما في يده ولا ينتفعُ منه الآخرون.

نحن نعيش في هذا المجتمع ولسنا معزولين عنه يجب أن نُعطيه مثل ما نأخذُ منه، وعندما نعطي المجتمع مما لدينا من مالٍ أو علم أو جاهٍ فأنّما نردّ إليه بعض جميله علينا وإذا أنعم اللّه علينا بنعمة فعلينا ان نحسن جوار هذه النعمة فاذا أسأنا استعمالها أو لم ندفع زكاتها أو عصينا اللّه فيها فانَّ اللّه يسلبها منّا.

إذا كنت في نعمةٍ فارعها ... فانَّ المعاصي تُزيلُ النعمْ

ويعلّمنا الامام ان نحسن الظّن باللّه عزّ وجلّ ليكون عند حُسن ظننا به. وان نرضى بالقليل من رزقه ليقبل اليسير من عبادتنا وهو الذي يُعطي الكثير بالقليل. نحنُ لم نقم بالقليل من الشكر والعبادة ونطلب منه الوفير من الرزق والصحة والاولاد ونطلب منه المنزلة العالية بين الناس وكأنَّ لنا التفضُّلَ عليه!

ويُحذِّرنا الامام (ع) من البُخل فيصف البخيل بانّه لا راحة له لانّه مشغول بادخار الاموال واخفائها عن أعين الناس وربّما يبخل بجاهه، وينبهنا الامام (ع) إلى ان الحسودَ لا لذة له في الحياة لانّه طامح إلى نعمة غيره راغبٌ في زوالها فعاشَ حياته مهموماً،و ليس للملولِ وفاء.

ويُحذِّرنا من الكذب لأنَّ الكذوب لا مروءة له، فالكذب أساسُ كُلِّ رذيلة فما أحرى الانسان باجتنابه.

لقد كان الامام الرضا (ع) ثروة علمية يحمل علماً جمّاً أخذهُ عن آبائه عن جدّهِ رسول

(١) أعيان الشيعة: ٢٨/١.

اللّه (ص) حتى قال أحد أصحابه: جمعتُ من مسائلِهِ مما سُئِلَ عنه وأجابَ فيه ثمانية عشر ألف مسألة[1].

ومع أنَّ الامام الرضا (ع) كان يجلس في مسجد رسول اللّه (ص) في المدينة يُفتي الناس بعلمه وهو دون العشرين من عمره فقد استثمر فرصة وجوده ولياً للعهد وفي موقع متقدم لينفع الناس في المجال الأوسع ويثري الساحة. فمن الضروري ان نقتدي بالامام (ع) فعلى من يملك فكرة ان يعطيها للآخرين، ومن يملك تجربة يُقدمها للآخرين من أجل الاسلام وعلينا ان نعمل لنكون في الساحة دائماً فلا مجال لترك الساحة ونتخذ من أئمّة أهل البيت ومن جدهم رسول اللّه (ص) أسوة حسنة.

مصادر البحث

١- القرآن الكريم.

٢- أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين، تحقيق السيد حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٣- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم وجماعته. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.

٤- تاريخ الرسل والملوك لمحمّد بن جرير الطبري (ت٣٠١هـ) تحقيق دي كويا M.J.degoeje مطبعة بريل، ليدن، ١٨٧٩-١٩٠١م.

٥- تاريخ اليعقوبي لأحمد بن أبي يعقوب جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي (ت٢٩٢هـ)، ط، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٤١٣هـ١٩٩٣م.

٦- زهر الآداب لابراهيم بن علي الحصري، القاهرة ١٣٥٠هـ.

٧- الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ابن الاثير الجزري الشيباني (ت٦٣٠هـ)، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

٩- مروج الذهب لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٥هـ) تحقيق سعيد محمد اللحام ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١٠- مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الاصفهاني (ت٣٥٦هـ) تحقيق السيد صقر منشورات الشريف الرضي، قم، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١١- مَن لا يحضره الخطيب للسيد داخل السيد حسن ط١، مؤسسة البلاغ، بيروت ١٤١١هـ-١٩٩١م/١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٢- الندوة للسيد محمد حسين فضل اللّه، اعداد عادل القاضي، ط٢، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م/١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٣- وفيات الأعيان لأبي بكر شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ) تحقيق: د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ب.ت.

(١) أعيان الشيعة: ٢/١٤.